انتقاءات : فن السرور
من كتاب

فقه المروءات

تأليف

أ.د. محمد بن إبراهيم الحمد

دار ابن الجوزي

فقه المروءات

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤٧هـ
الحمد، محمد إبراهيم
فقه المروءات. / محمد إبراهيم الحمد - ط١. -الدمام، ١٤٤٧هـ.
٤٣١ ص، ١٧×٢٤سم
رقم الإيداع: ١٤٤٧/٢٨٨
ردمك: ٣ - ١١ - ٨٥٢١ - ٦٠٣ - ٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤٧هجرية
٢٠٢٥ ميلادية

الباركود الدولي: 9786038521113

حقوق الطبع محفوظة ©١٤٤٧هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٠١٣٨٤٢٨١٤٦ - ٠١٣٨٤٦٧٥٩٣
٠١٣٨٤١٢١٠٠
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي: ٤٩٧٣
الرياض - ت: ٠٥٩٢٦٦٢٤٩٥
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٠١٣٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٠١٠٠٦٣
جوّال: ٠٥٨٣٠١٧٩٥١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر - القاهرة:
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٨٣
٠١١١٢٤٥٨٤٤٤ - ٠١٢٨١٩١٤٠٠١

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
ibnaljawzi.com

الرابعة والعشرون:
فَنُّ السرور

فن السرور مقوم عظيم من مقومات المروءة، والحاجة ماسَّة إلىٰ البحث فيه، وبيان مفهومه، وارتباطه بالمروءة، وسيكون ذلك من خلال ما يلي:

١ ـ مفهوم فن السرور

فن السرور يعني كيفيةَ الابتهاج بالحياة، والاستمتاعِ بها، والمحافظةِ علىٰ أوقات الصفاء، والحرص علىٰ استدعاء السعادة، واستنزال السكينة.

ويعني ـ كذلك ـ دَرْأَ الهموم، والبعدَ عن المنغصات، وحُسْنَ التلقي للواردات، وكيفيةَ التعاملِ مع الأزماتِ، وكافةِ المتغيرات.

وللأديب الأستاذ أحمد أمين رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه (فيض الخاطر) مقالات كثيرة تدور في هذا الفلك.

ومن العنوانات الجميلة التي صدَّر بها بعض مقالاته، مقالًا عنوانه: «فن السرور»، ومقالًا آخر عنوانه: (الابتهاج بالحياة).

وذلك يعني أن تعرف كيف تستمتع بالحياة، وتجعل من المحنةِ منحةً، وكيف تكتسب السرور حتىٰ في المواطن التي قد يُرىٰ بادي الرأي أَنْ لا سرور فيها.

ومن باب أولىٰ أن لحظات السرور التي لا منغص فيها أن تستمتع بها أكثر وأكثر.

يقال هذا لأن بعض الناس حتىٰ في حال سروره، وفي حال أنسه بين أهله وأولاده وأحبابه، وفي حال نجاحه ـ لا تجده مسرورًا، بل تراه يجتر المآسيَ والأحزان، والاجترارُ من سمة الدواب، لكن بعض الناس يجتر

اجترارًا معنويًا؛ فتراه يستعيد المأساة، ويستدعيها عبر خياله؛ ففي حالة سروره تجده حزينًا، وفي حالة حزنه يُضاعف من حزنه.

وقد عَبَّرَ بعضهم عن ذلك بقوله:

أُحِبُّ ليالي الهجر لا فرحًا بها ... عسىٰ الدهر يأتي بعدها بوصال
وَأَكْرَهُ أيامَ الوصالِ لأنني ... أرىٰ كلَّ وصلٍ محكمًا بزوال

وعبَّر عن هذا المعنىٰ أبو الطيب بقوله:

أشدُّ الهَمِّ عندي في سرورٍ ... تَيَقَّنَ عنه صاحبه انتقالا

وترىٰ بعضهم مولعًا بالتشاؤم، والتنغيص علىٰ نفسه كما يوجد كثيرًا عند بعض الشعراء، كابن الرومي؛ فبرغم إبداعه، وجودة شعره فإنه كان كثير التطير كما في قوله:

عَكَسَتْ حَظِّيَ النحوسُ فعنزي ... أبدًا حائلٌ وتيسي حلوبُ

وكما في قوله:

لمن تؤذن الدنيا به من صروفها ... يكون بكاء الطفل ساعة يولدُ
وإلا فما يبكيه منها وإنها ... لأفسح مما كان فيه وأرغدُ
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه ... بما سوف يلقىٰ من أذاها مهدَّدُ

فالمقصود من هذا المعنىٰ أن يتعود الإنسان أن يسعد نفسه، وأن يسعد غيره، وأن يطرد الهموم ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلًا.

٢ ـ ارتباط السرور بالمروءة

أما ارتباط السرور بالمروءة فظاهر؛ لأن صاحب المروءة يسعىٰ لإسعاد نفسه وإسعاد الآخرين، وكيف يسعدهم وهو ليس بسعيد؟!

فلا بد ـ إذًا ـ أن تنبع هذه السعادة منه، وتسري إلىٰ من حوله، ولو كان عنده ما عنده من العوارض التي تنافي السعادة؛ فصاحب المروءة يحاول قدر المستطاع أن يسيطر علىٰ نوازعه، وعلىٰ تأثراته النفسية، وجفواته العارضة.

وتلك مروءة باذخة؛ لأنه لا يمكن أن يخرج في كل يوم، وهو طلق

المحيَّا أمام طلابه، أو رؤسائه، أو مرؤوسيه، أو أولاده، أو أقاربه أو عموم الناس ـ إلا وقد راض نفسه رياضةً شاقةً حتىٰ استوت له علىٰ الطريقة المثلىٰ.

وإذا كان كذلك فهو من أصحاب المروءات.

وإذا رضي في عيشه، وقنع برزقه، وبما آتاه الله من مال، أو علم، أو جاه فسيكون مسرورًا.

وإذا كان كذلك فإنه سينبعث إلىٰ المكارم، وسيسعىٰ إلىٰ مزيد من الخير والعلم، والكسب المادي والمعنوي.

أما إذا تنغصت نفسه، وتكدرت حاله فلا يُرجىٰ منه خير كثير لا لنفسه ولا لمن حوله.

وسيتبين مزيدُ إيضاحٍ لارتباط السرور بالمروءة في فقراتٍ قادمة.

٣ ـ علاقة فن السرور براحة البال

إذًا تستطيع أن تقول: إن فن السرور أو السرور في حد ذاته له علاقة براحة البال؛ لأن الذي يتقن فنَّ السرور سوف يعيش في راحةٍ من البال، وإذا كان كذلك فَسَيَسْعَدُ، ويُسْعِد.

لكن ليس معنىٰ راحة البال أن يكون الإنسان خاليًا من الهموم، فمن ذا الذي يخلو من الهموم؟!

لا أحد يخلو منها أبدًا، كما قال الأول:

عِشْ مُوسرًا إن شئت أو معسرًا ... لا بد في الدنيا من الغمِّ
دنياك بالأحزان مقرونةٌ ... لا تُقْطَعُ الدنيا بلا همِّ

لكن المقصود من ذلك أن يحاول الإنسان قدر المستطاع ألا يجعل الهم يأكله، ويسيطر عليه.

ولهذا أنزل الله ﷻ من جملة ما أنزل علىٰ رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١، ٢].

بل ما أُنزل القرآن إلا لسعادتك ـ أيها الرسول ـ وسعادة قومك: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

والرسول ﷺ قد توطَّن على أن أداء الرسالة ليست بالأمر اليسير، وأنه يحتاج إلى جُهْدٍ عظيم، وإلى صبر، واحتساب، وجهاد، وإلى مقابلة الإساءة بالإحسان، فهو سيلاقي قومًا مشركين، والعادة اليسيرة من عادات الناس يصعب تغييرها فكيف بتغيير دينهم كاملًا؟!

ومع ذلك أنزل الله ﷻ عليه: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١، ٢] كي يسعى سعيه لإسعاد نفسه، وإسعاد البشرية جمعاء إلا من أبى.

وموسى عليه السلام لما أرسله الله ﷻ إلى فرعون وهو قد تربى في حَجْر فرعون، ويعرف ماذا يصنع فرعون، ويعلم أنه كان يقتل عامًا ويترك عامًا؛ خَشْيَةَ أن يخرج ذلك الفتى من بني إسرائيل، ثم ينزعه من ملكه؛ بسبب الرؤيا التي رآها وفسِّرت له.

ولما أوحى الله ﷻ إلى موسى بعدما ألقى العصا فإذا هي حيَّة تسعى، وبعدما رأى يده تخرج بيضاء من غير سوء، وكلَّفه بالرسالة، وقال له: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤] دعا موسى بدعوات عظيمة، وأول ما دعا به قوله: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ [طه: ٢٥، ٢٦]، فإذا انشرح صدره انبعث إلى كل خير، وأقبلت إليه القلوب بطواعيتها.

لكن إذا دعاهم بنفسٍ قلقة مستوفزة قالوا بلسان حالهم: ماذا تريد منا؟ أَوَ تُرِيْدُ أن نكون مثلك؟ نحن نريد الروح المسرورة، والنفس المطمئنة؛ فإذا انشرح صدر الإنسان فلا تَسَلْ عما سَيُطْرح من الخير على يديه.

ثم قال موسى عليه السلام: ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ وتيسير الأمور داخل في راحة البال، لكن إذا تعكَّست عليك المقاصد فسيعود ذلك عليه بالتنغيص.

ثم قال: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ [طه: ٢٧، ٢٨]؛ لأنه إذا تكلم أَبَانَ عما في ضميره، وإذا أبان عما في ضميره ارتاحت نفسه.

ولما كان في لسانه عليه السلام حُبْسَةٌ قال: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى﴾ [طه: ٢٩]؛

وهذه أعظم شفاعة في التاريخ ﴿هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾ [طه: ٣٠ ـ ٣٢]؛ والشراكة في الخير من أسباب مضاعفة الثواب، ومن أسباب الإنجاز والراحة في العمل.

ثم بيَّن الغاية من ذلك كله، فقال: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه: ٣٣ ـ ٣٥].

فقد توسل بهذه الدعوات العظيمة، لهذه الغاية النبيلة (كي نسبحك...): يعني ننزهك، ونقدسك، وندعو إلىٰ توحيدك، وإلىٰ تنزيهك من كل شرك.

فإذا تبين لنا أن الأنبياء وهم خاصة البشرية، وهم الذين قاموا بأعظم عمل وأشرفه، وقد ابتلوا بأشد البلايا بنص الحديث: «**أشد الناس بلاءً الأنبياء**»، «**وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم**» أنهم يسعون إلىٰ السعادة، ويَدْعُون إليها ـ فمعنىٰ ذلك أن الإنسان قادر علىٰ أن يسعد نفسه، وأن يستجلب السرور إلىٰ قومه، بل هو مطالب بذلك.

ولو نظرت إلىٰ أحلك المواقف في حياة النبي ﷺ وهو في الغار وكفار قريش يريدون أن يظفروا به، وقد بذلوا الأعطيات لمن يأتي به حيًّا أو ميتًا، وذلك موطن قلق واضطراب، ومع ذلك يقول لصاحبه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، فأنزل الله عليه السكينة.

ومن أين تأتي السكينة؟ من حسن العمل، وحسن الظن.

بل إذا تدبرت آيات السكينة التي وردت في القرآن؛ وجدت أنها كلَّها قد نزلت في مواطن القلق.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٦].

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٤].

فالسكينة تتنزل في مثل هذه المواطن لأهل السكينة الذين يستنزلونها، ويبحثون عنها برضا الخالق ـ تبارك وتعالىٰ ـ.

فهذا ـ إذًا ـ يبين لنا أن وجود الهموم، ووجود المنغصات والمعاكسات لا يمنع الإنسان من أن يحاول أن يسعد نفسه وغيره.

٤ ـ فن السرور يكتسب

السرور فنٌّ، وحالٌ يمكن أن يكتسب، ويُتْقن.

والذي يتمثل هذه الخصلة هم العظماء من ذوي المروءات.

والمروءة مبذولة لكل أحد، وكلٌ يحاول أن يأخذ منها ما يأخذ؛ فإذا كنت رأسًا مطاعًا كبيرًا في أسرتك، أو في مكانتك، أو في عملك ـ فإنه يحسن بالكبير أن يكون كبيرًا في كل شأنٍ من شئونه.

ومن ذلك: أن يكون سعيدًا مسعدًا هاشًّا باشًّا؛ ولهذا يقال: إن أحكم بيت قالته العرب:

وَلَرُبَّما اِبتَسَمَ الكريمُ مِنَ الأَذىٰ ... وَفُؤادُهُ مَن حَرِّهِ يَتَأَوَّهُ

وإذا أثنىٰ الأدباء علىٰ أحد أثنوا عليه بمحامده ومحاسنه.

ومن محاسن ما يثنون به عليه أنه يبتسم في أحلك المواقف، ويستشهدون في ذلك بقول المتنبي في مدح سيف الدولة:

وقفتَ وما في الموت شكٌّ لواقفٍ ... كأنَّك في جَفْنِ الردىٰ وهو نائمُ
تمرُّ بك الأبطال كَلْمىٰ هزيمةً ... ووجهك وضَّاحٌ وثغرك باسم

وأجمل من ذلك، وقبل ذلك قول أبي تمام في نوح بن عمرو:

لا تَدْعُوَنْ نوحَ بْنَ عَمْرٍو دعوةً ... للخطب إلا أن يكون جليلا
يَقِظٌ إذا ما المشكلاتُ عَرَوْنَهُ ... ألفيته المتبسمَ البُهلولا
ثبتُ المقامِ يرىٰ القبيلةَ واحدًا ... ويُرىٰ فيحسبه القبيلُ قبيلا

وقريب من ذلك: قول الخوارزمي أبي بكر محمد بن العباس:

مُتَبَسِّم في الخطب تحسب أنه ... تحت العجاج مُلَثَّمٌ بفعاله

فهذه الحال تدل علىٰ أن صاحب هذه النفس قد تمكنت منه المروءة، وسرت في دمه؛ ففي مثل هذه المواطن التي تقتضي الكلوح، والعبوس، ويكون فيها الضيق، والخوف من الموت ـ تجد ذلك الإنسان يتبسم تبسم الواثق المطمئن الراضي لا تبسم البليد البارد غير المبالي.

وذلك ـ في الحقيقة ـ يشير إلىٰ معنىً عظيم وهو أن صاحب هذه النفس إنسانٌ كبيرٌ عظيمٌ قد راض نفسه أيما رياضة، وتخللت منه المروءة مسلك الروح.

وإذا رآك من تحت يدك وأنت علىٰ هذه الحالة من التبسم، والرضا سرت إليهم تلك الروح.

أما إذا رأوك منهزمًا خائفًا رعديدًا مضطربًا متضعضعًا فلا شك أن تلك الأحوال ستسري إليهم، وستقودهم إلىٰ الضعف، والانهزام.

ولهذا يذكر أن العباس لما توفي أحجم الناس عن تعزية ولده عبد الله رضي الله عنهما إجلالًا وتعظيمًا حتىٰ قدِم رجل من البادية فأنشده:

اصبرْ نَكُنْ بك صابرين وإنما ... صبرُ الرعيةِ عند صبرِ الراس

خيرٌ من العباسِ صبرُك بعده ... والله خيرٌ منك للعباس

فسُرِّي عنه، وأقبل الناس علىٰ تعزيته.

ويذكر أن ابن عباس قال: «ما عزَّاني بوالدي مثل أعرابي قال: اصبر نكن بك...».

إذًا يمكن أن يقال: إن فن السرور مكتسب وفطري في آنٍ واحد؛ إذ قد يستطيع الإنسان أن يتمثل هذا السرور علىٰ حسب حالته باستطاعته.

ولكنه يحتاج إلىٰ أخذ بالأسباب، ولهذا تجد بعض الناس يصيبه الأمر اليسير جدًّا؛ فينغص عليه حياته، ويؤرق جفنه.

وتجد أن مثل هذا، وأضعاف أضعافِه يصيب إنسانًا آخر ومع ذلك لا يبالي.

وليس معنىٰ أنه لا يبالي: أنه يترك الدنيا تسير هكذا من دون أن يعمل ما في وسعه، وإنما لأنه قد وطَّن نفسه، وأبعد مدىٰ همته، ووضع مثل هذه الأمور في موضعها اللائق بها، وتوطَّن علىٰ ذلك كلِّه:

ولا خير فيمن لا يوطِّن نفسه ... علىٰ نائبات الدهر حين تنوب

قال ابن حزم: «وطِّنْ نفسك علىٰ ما تكره يَقِلَّ هَمُّك إذا أتاك، ويعظم سرورك ويتضاعف إذا أتاك ما تحب ما لم تَكُن قَدَّرته».

وكان عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ ممن وطَّنوا أنفسهم علىٰ مثل هذه المعاني، ومن ذلك أنه لما تولىٰ لم تَطِشْ به الولاية في زهو.

وروي أنه لما دفن ابنه عبد الملك ـ وكان عبد الملك صالحًا برًّا توفي دون العشرين من عمره ـ مرَّ بقوم يَرْمون؛ فلما رأوه أمسكوا، فقال: «ارموا، ووقف، فرمىٰ أحد الراميين، فأخرج[1]، فقال له عمر: أخرجت؛ فَقَصِّر.

وقال للآخر: ارمِ، فرمىٰ، فقصَّر، فقال له عمر: قصَّرت؛ فبَلِّغ».

فقال له مسلمة بن عبد الملك: «يا أمير المؤمنين أَتُفَرِّغ قلبك إلىٰ ما تَفَرَّغْتَ له، وإنما نفضت يدك الآن من تراب قبر ابنك، ولم تَصِلْ إلىٰ منزلك؟»

فقال له عمر: «يا مسلمة إنما الجزع قبل المصيبة؛ فإذا وقعت المصيبة فالْهُ عما نزل بك».

وروي أن عمر بن عبد العزيز كتب إليه بعض الناس يعزيه بموت ابنه عبد الملك، فقال عمر لكاتبه: «اكتب، ودَقِّق القلم: أما بعد فإن هذا أمر كنا وطَّنَّا نفوسنا عليه؛ فإذا نزل بنا لم نكرهه، والسلام».

فهؤلاء الأكابر يوطنون أنفسهم علىٰ السكينة، وعلىٰ أن الحوادث قد تأتي في كل وقت، فإذا واتَتْهُمْ وإذا بهم قد أخذوا أُهبتهم، واستعدوا لها بما يجعلهم يقاومون هذه الحوادث.

أما الذي لا يوطن نفسه فقد تأتيه المصيبة علىٰ غرة؛ فتفقده صوابه، وقد يموت من جرائها.

٥ ـ الإحزان من الشيطان

يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المجادلة: ١٠]، فهذا ديدن الشيطان يريد من الذين آمنوا أن يحزنوا ويقلل فيهم السرور؛ فكيف يستطيع الإنسان المسلم أن يتغلب علىٰ هذا حتىٰ يصل إلىٰ مرحلة السعادة؟

---

(١) أخرج: أي كانت الرمية أبعد من الهدف، والتقصير بخلافه.

والجواب: أن إحزان الذين آمنوا مقصدٌ من مقاصد الشيطان، ولهذا نُهي عن تناجي الاثنين في وجود الثالث؛ من أجل أن ذلك يُحزنه، ونهانا الله ﷻ عن الحزن في القرآن، ولم يأتِ أمرٌ بالحزن، ولا الثناء علىٰ الحزن، وإنما أتىٰ علىٰ سبيل النهي والإخبار: ﴿تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢]، فهذا إخبار عن حال، لكن الحزن نهانا الله عنه في عددٍ من الآي، كما في قوله ـ جل ثناؤه ـ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

وقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨].

وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٠].

والشيطان يريد أن يحزنك في مجالاتٍ كثيرة، فيجعلك تسيء الظن بإخوانك، وتحملهم علىٰ أسوأ المحامل، والشيطان يَؤزُّ الإنسان إلىٰ الشر والمعاصي أزًّا، أي يزعجه إزعاجًا شديدًا، ثم إذا وقع خذله، وتخلىٰ عنه، وأسلمه للأحزان، وزيَّن له استمراء المعصية حتىٰ ينزل من دركةٍ إلىٰ أسفلَ منها، حتىٰ يوقعه في بئر من الأنكاد والحسرات.

وكثيرًا ما يَصُدُّ الشيطانُ المسلمَ عن فعل الطاعات؛ فإذا أردت ـ علىٰ سبيل المثال ـ أن تقوم بزيارة لأحد الأقارب بدأ يثبطك، وإذا أردت أن تقرأ القرآن بدأت الشواغل، وإذا أردت أن تقوم بأي عمل فيه أي مصلحة لك بدأ في تثبيطك، وإذا أردت عملًا فاضلًا شغلك عنه بالمفضول، وإذا اشتغلت بالمفضول شغلك بفضول المباحات، وإذا اشتغلت بفضول المباحات نقلك إلىٰ الصغائر، ثم إلىٰ الكبائر، وهكذا.

وإذا أردت أن تقوم من النوم للصلاة تجد التثبيط، ثم إذا استرسلت معه، وفات وقت الصلاة قمت بعد ذلك والحزن والضيق ملء قلبك.

لكن إذا نهضت من فراشك، واستعذت بالله، وذكرت الله، ثم توضأت وخصوصًا إذا بالغت في الاستنشاق والاستنثار بدأتَ تتخلص من كيده وإحزانه؛ لأن الشيطان يبيت في خياشيم الإنسان، فإذا توضأت وصليت وجدت انشراح الصدر.

وانظر إلىٰ خواطرك أول ما تقوم من النوم، فسترىٰ أنها متكدرة، وتنزع أحيانًا إلىٰ الشر والعدوان؛ لذا ينبغي للإنسان ألا يستسلم لخواطره أول ما يقوم من النوم؛ فإذا قام وتوضأ وصلىٰ الفجر ولو لم ينم من الليل إلا قليلًا فسيلاحظ أن نفسه قد طابت، وأن صدره قد اتسع؛ لأنه قاوم الشيطان، وقاوم نفسه الأمارة بالسوء، وأقبل علىٰ ربه؛ فالشيطان ـ إذًا ـ يسعىٰ لِلإِحْزَان، وجلب الكدر والهم.

ولهذا فإن من الغلط أن يستشهد بالحديث الموضوع في وصف النبي ﷺ أنه كان متواصل الأحزان، بل الأمر عكس ذلك؛ فقد كان أشرح الناس صدرًا، وكان كل من رآه بديهة أَحَبَّه، وكل من اقترب منه قبس من نوره وسعادته بقدر قربه واتباعه.

يقول جرير بن عبد الله البجلي: «ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسم في وجهي».

فهو يتبسم في شتىٰ أحواله، مع ما كان عنده من أمور وأعمال جسام من نحو تجهيز الجيوش، وتعليم الناس، والصبر علىٰ الأذىٰ، ومقاومة الأعداء، والقيام بشأن خاصته وبيته مع سائر ما يمر به من ابتلاءات.

ولكنه ـ مع ذلك كله ـ قد وَطَّن نفسه علىٰ كل وارد، واتصل بخالقه ـ تبارك وتعالىٰ ـ وأخذ بالأسباب الكثيرة التي تجعله هادئًا مستقرًا سعيدًا مُسْعِدًا تغشاه السكينة، ويعلوه البِشر.

٦ ـ علاجُ الخوفِ، والبحثِ عن الشقاء

هناك نفوس تبحث عن الخوف، والشقاء والنكد والكدر؛ فتجد بعض الناس إذا شاهد اثنين يتناجيان ظن أنهما يتكلمان فيه، وقد يكون ذلك مرضًا نفسيًّا يحتاج إلىٰ علاج.

وتجد بعض الناس مهما بلغ من النجاحات يجتر المآسي، فإذا أراد أن يقوم بعملٍ جديد بالغ في الخوف من الإخفاق.

وإذا أراد الكلام أو الخطابة بالغ في تعظيم شأن الخوفِ، والخوفُ في البدايات أمرٌ طبيعيٌّ، وكل أحد يشعر به حتىٰ أشجع الشجعان يشعرون بالخوف، ولهذا فإن العلم من أين تؤتىٰ المكارم هو مما يعين علىٰ الارتقاء بالنفس، فإذا علمت أن هذا الشعور الذي يصيبك في بداية كل عملٍ جديد أو كبير أنه يصيب كل أحد من الناس، وأنك لست وحدك فيه، وقُلْتَ: شأني شأنُ غيري لم يَعُدْ بك الخوف إلىٰ الإقصار، وإنما يدعوك إلىٰ الإقدام والأخذ بالأسباب، والصبر عند الصدمة الأولىٰ:

وكل أَمْرٍ علىٰ مقدار هيبته ... وكل صعب إذا هَوَّنته هانا

و:

لا تكونن للأمور هيوبًا ... فإلىٰ خيبة يؤول الهيوبُ

والناس في ميدان المعركة يصيبهم الخوف حتىٰ كبار الأبطال؛ فهذا عمرو بن معديكرب الزبيدي الصحابي المعروف كان ﷺ من شجعان العرب قبل الإسلام، حتىٰ إن أبا تمام لما مدح الخليفة قال:

إقدام عمرو في سماحة حاتم ... في حلم أحنف في ذكاء إياس

ويعني بعمرٍو: عَمْرَو بن معديكرب؛ فقد أعطاه الله قوةً في القلب، قوةً في البدن، وكان رجلًا طوالًا حتىٰ إن عمر بن الخطاب ﷺ علىٰ طوله يقول إذا رآه: «الحمد لله الذي خلقنا وخلق عمرو بن معديكرب».

ويصفه أحد واصفيه، فيقول:

كأن ذراعيه ذراعا شِمِلّةٍ ... وأصبعه الوسطىٰ تزيد علىٰ شبر

وكان ـ كما يقولون عنه ـ يجلس علىٰ الجذع من الإبل؛ فينتقيه عظمًا عظمًا، وهو أحسن من وصف الحرب، وذلك بقوله:

الحربُ أوّلُ ما تكونُ فُتيَّةً ... تسعىٰ بزينتها لكلِّ جَهولِ

حتىٰ إذا استَعَرَت وشَبَّ ضِرامُها ... عادت عجوزًا غيرَ ذاتِ خليلِ

شمطاءَ جَزَّت رأسَها وتَنَكَّرَت ... مكروهةً للشَّمِّ والتقبيلِ

انظر إلىٰ هذه الشجاعة، وهذه القوة، ومع ذلك؛ فما شعوره وهو في ميدان القتال؟

لقد أوضح ذلك، ووصف نَفْسَهُ في ميدان المعركة بما لا مزيد عليه، حيث يقول:

ولقد أجمعُ رِجلَيَّ بها ... حَذَرَ الموتِ وإنّي لَفَرورْ
ولقد أعطِفُها كارهةً ... حين للنفس من الموت هَريرْ
كلُّ ما ذلك منّي خُلُقٌ ... وبكلٍّ أنا في الرَّوع جديرْ

يعني: أن هذا الخوف الذي يعتريني لا يمنعني من أن أكون في مقدمة الأبطال الشجعان، ولا يجعلني أحجم؛ إذ الخوف شعور طبيعي، ولكن الأبطال يدفعونه عن أنفسهم، ويأخذون بالأسباب التي تخلصهم منه.

وبالمقابل تجد بعض الناس من عنده ثقة مفرطة في نفسه، مع أنه ليس أهلًا للكلام، ولا للخطابة، ولا للكتابة ولا لكافة معالي الأمور، ومع ذلك تجده يُقْدِم، ويقول: أنا لها، وهو ليس من قبيل أهلها، فهذا متعظمٌ فخور.

ويقال له: لا، ليس الأمر كذلك، فالخوف ليس مذمومًا بكل حال؛ فمن الخوف ما هو محمود، وهو الخوف الذي يحمل علىٰ الأخذ بالأسباب، والنظر في العواقب، ومعرفة متىٰ يكون الإقدام، ومتىٰ يكون الإحجام.

ومنه ما هو مذموم، وهو الذي يحمل علىٰ الخور، والنُّكوص، والإقصار عن العملِ والإقدامِ.

والحاصل أنه بقدر ما يحرص الإنسان علىٰ الأخذ بالأسباب التي تسعده يكون جديرًا بنيل المكرمات والخيرات العظيمة في دنياه وفي أخراه.

٧ ـ حسن التلقي للمصائب

صاحب المروءة يبحث عن سروره، وينأىٰ عن كل ما ينغص علىٰ نفسه وعلىٰ غيره؛ لأنه لا يود أن يُشْغِل أحدًا بِهَمِّه مع اشتغاله بهموم الآخرين.

والإنسان قد تصيبه مصائب، وقد تفزعه قوارع، لكن صاحب المروءة

يلزم الصبر والسَّكينة، ولهذا أرشد النبي ﷺ لهذا المعنىٰ بقوله: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولىٰ**».

وبعض الناس يظن أن الصبر عند الصدمة الأولىٰ إنما يشمل المصائب الكبار من نحو الجوائح، أو الخسائر المالية الكبيرة، أو الأمراض المستعصية، أو فقد الأولاد.

والحقيقة أن الصبر عند الصدمة الأولىٰ يشمل ذلك، ويشمل ما هو دون ذلك؛ فأحيانًا قد تصدم بصديق، وقد تصدم بزميل، وقد تصدم بابن، وقد تصدم بقريب، وقد تصدم بموقف خاذل، وقد يكون ذلك الموقف تافهًا، لكن ينال نيله من تفكيرك وقلقك.

والذي يوطن نفسه، ويصبر عند الصدمة الأولىٰ يوفق بإذن الله.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ﴾ [البقرة: ١٥٥].

وكلمة «شيء» في الآية تعني الأمر القليل، والشيء يطلق علىٰ أعظم الأشياء كما قال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٩].

ويطلق علىٰ أقل الأشياء: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]، ويطلق علىٰ ما بينهما.

وقوله ﷻ: ﴿بِشَيْءٍ﴾ يعني شيئًا قليلًا يسيرًا مقارنةً بالنعم التي نتقلب بها صباح مساء.

قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

وفي هذا توطين للإنسان بأن يكون مستعدًا لكل وارد؛ فالحياة الدنيا ليست خلوًا من المنغصات، بل هي ـ كما يقول أبو الحسن التهامي ـ:

طبعت علىٰ كدر وأنت تريدها ... صفوًا من الأقذاءِ والأكدارِ
ومكلِّف الأيامِ ضدَّ طباعها ... متطلِّبٌ في الماء جذوةَ نارِ

ولهذا قال ـ تعالىٰ ـ في ختام الآية السابقة: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦].

ولو أن الإنسان استرجع عند أدنىٰ مصيبة لأتته الثمرات العاجلة: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧].

فإذا وطَّن الإنسان نفسه علىٰ مثل هذه الصدمة، وصبر عند الصدمة الأولىٰ، من نحو الصبر عند الموقف الخاذل من الصديق أو ممن تتوسم به الخير، أو ممن بلغك أنه نالك بسوء ـ فذلك خير من قلة الصبر، ومن الطيش، ومما ينافي المروءة من نحو العجلة بالعتاب، أو العقاب، والعرب في أمثالها تقول: «تعجيل العقاب سفه».

لأن الحكمة تقتضي أن يتأنىٰ الإنسان، وأن يتريث، وأن يقلب الأمر ظهرًا لِبطن؛ فقد يَبْلُغُه إساءة من أحد، أو موقفٌ خاذل، أو تقصير في حقه؛ فإنْ هو استعجل فربما يكون الخبر الذي بلغه غير صحيح، وقد يكون مُبَالَغًا فيه؛ فيندم ولات ساعة مندم.

لكن إذا تأنىٰ، وتريث أصبحت الخيارات كلها بيده.

ومن الغلط أن تقدم الخيار الأشد، وأن تجعل الكي أول العلاج؛ إذ الكي آخر العلاج، فإذا تَأَنَّيْتَ صارت الخيارات كلها بيدك: العتاب، أو العقاب، أو السكوت، أو العفو، أو أي أمر تريده.

والإنسان إذا استعجل؛ فعاتب، أو عاقب ربما وجد أن الأمر علىٰ خلاف ما تصوره.

لكن إذا تأنيت، وسكنت ريحك، وهدأت نفسك تصورت الأمر علىٰ حقيقته، وقلت في نفسك: قد يكون ذلك المخطئ أخًا لي قريبًا شفيقًا أو صديقًا أو ابنًا وأنا أفيد منه كثيرًا، وبيني وبينه مصالح مشتركة، وبيني وبينه الأخوة والمودة، وقد أحسن إليَّ إحسانًا كثيرًا، والحكيم يقول:

وإذا الحبيب أتىٰ بذنبٍ واحدٍ ... جاءت محاسنه بألف شفيع

والآخَر يقول:

فإن يكن الفعل الذي ساء واحدًا ... فأفعاله اللائي سررن ألوف

والآخر يقول لما عوتب عن ترك العقاب أو العتاب: «أفأوسِّع جُرحي؟!».

فمن هنا ينفتح لك باب التعقل، والتصرف الحكيم الأمثل؛ فتهدأ نفسك، وتربح صاحبك، وتسلم من خسارته.

وعدم خسارتك له مكسب كبير، وكسبك لهذا الموقف بأنك انتصرت علىٰ نفسك هذا ـ أيضًا ـ مكسب آخر.

لكن لو استعجلت لربما انفصمت العرىٰ بينك وبين صاحبك، وانتكث ما بينكما، وربما خسرت ما بينك وبينه من مصلحة، ومن هنا جاء التوجيه النبوي: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولىٰ**».

والصدمة الأولىٰ ـ كما مر ـ لا تقتصر علىٰ الجوائح الكبيرة، بل حتىٰ عند أي صدمة تصيب الإنسان؛ فيحسن به أن يتأنىٰ، وألا يستعجل.

وتخيل أنه لو بلغك أن أحد أصحابك قد نال منك ما نال، وتكلم فيك بما لا يرضيك، ثم صبرت وتأنَّيت، وتبين لك أن الأمر علىٰ خلاف ما قيل تمامًا ـ فما موقفك؟

لا شك أنك ستفرح، وستقول: الحمد لله أنني لم أتصرَّف تصرفًا أندم عليه.

والعكس من ذلك لو أنك تعجلت، وقلت ما قلت، ثم تبين لك أن الأمر خلاف ما بلغك تمامًا؛ فهل ستضطر للاعتذار؟

ومن هنا كان تعجيل العقاب سفهًا، وكانت الحكمة بالصبر عند الصدمة الأولىٰ.

وهذا من أعظم ما يجلب لك السرورَ، والسرورُ ـ كما مرَّ ـ مقوّم من مقومات المروءة، ومن فقه صاحب المروءة أن يكون قادرًا علىٰ السرور، بل علىٰ انتزاعه وأَخْذِهِ غِلابًا.

والحاصل: أن ذا المروءة يتلقىٰ المصيبة بالصبر؛ فإذا صبر، واحتسب، وسأل الله ﷻ العوض وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، كان لذلك أبلغ الأثر في تهدئة النفس.

لكن إذا انزعج الإنسان، ولم يحسن التصرف تضاعفت المصيبة؛ إذ قد يحدث أحيانًا مصيبة في البيت كوفاة عزيز.

وبَدَلَ أن تكون واحدة تكون مصائب؛ فهذا يبلغه الخبر؛ فيسقط مغشيًا عليه، وذاك يولول، وهذا يلطم، وهذا يعترض.

ولهذا قيل: «إن المصيبة إذا نزلت إنما هي واحدة؛ فإن جزع صاحبها صارت اثنتين».